

الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس وجوارها في القرن السادس عشر

على أوسط إبراهيمي*

الملخص

يكون البحث في هذا المقال حول مدينة القدس ومكانتها المقدسة التي حظيت بها على امتداد عصور تاريخية، ومكانتها الجغرافية والتاريخية التي اكتسبتها على امتداد العصور والأحقاب، وخاصة يعرض الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس وجوارها في القرن السادس عشر، لأن بداية القرن السادس عشر هي الخطة التاريخية التي تنوسط ثمانية قرون بالضبط، تشكل طوالها احتلال الصليبيين لبيت القدس عام ١٠٩٩م/٤٩٢ق وانتهاء الحجم الديموغرافي للقدس إثر مصرع قرابة ٧٠ ألف نسمة من سكان القدس مسلمين، ونصارى؛ والرسم البياني يوضح حجم الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس بعد عشرة قرون، والهجمة الصليبية الأولى في احتلال الفرنجة للقدس عند نهاية القرن الحادى عشر، والنقصان الكبير في عدد سكانها، وتسجيل الحاج بورشا في توصيفاته للأرض المقدسة الطوائف والأديان والمذاهب والعناصر السكانية التي كانت القدس ملتقاها على مرّ التواريخ العصور الوسطى.

الكلمات الدليلية: مدينة القدس، الصهيونية، الصليبيون، المسلمون، الديموغرافية، النساطرة، اليعاقبة.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت معلم.

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٣/١ هـ. ش

تاريخ القبول: ١٣٨٩/٧/٨ هـ. ش

المقدمة

تعد مدينة القدس في مركزها وأطرافها من أعرق المناطق التاريخية في العالم، إذ كانت ولم تزل وستبقى تشغل تفكير الإنسان واهتماماته وتوجهاته، كما كانت عليه منذ عصور سالفه، ولعل من أبرز العوامل التي جعلتها مرتكزاً تاريخياً أساسياً للجذب والدفع السكاني:

١. المكانة المقدسة التي حظيت بها على امتداد عصور تاريخية وللأديان الثلاثة السماوية اليهودية والنصرانية والإسلام.
٢. المكانة الجغرافية التي تتمتع بها في قلب العالم القديم قبل العصر الحديث، فضلاً عن جغرافيتها المؤثرة على امتداد الحديث.
٣. المكانة التاريخية التي اكتسبتها على امتداد العصور والأحقاب، ليس من خلال مركزيتها السياسية لأنها لم تكن عاصمة لأية دولة عدا مملكة الاتين الصليبية، بل لكونها ذات تأثير بالغ في توجيه أحداث وظواهر تاريخية كبرى في العلاقات بين الدول والكيانات التي أثمرت حالات من صراع الشرق مع الغرب، سواء أكان ذلك في العصور الوسطى أم العصر الحديث.

إن هذه الدراسة ستعالج على مهل وباختزال شديد إحدى أبرز الظواهر الأساسية في حياة مدينة القدس وأطرافها إبان العصر الحديث الذي شغله فيها التاريخ العثماني وبالتحديد القرن السادس عشر الميلادي، باعتبارها إحدى أبرز المدن التي عنى بها العثمانيون أولاً، ثم التعرف على عروبة مجتمعها المتنوع في المركز والمحيط ثانياً، والتوغل في كشف تباينات تاريخها السوسولوجي المحل وحالات تلك البستانات التي توارثها أبناء مدينة القدس في علاقاتهم وارتباطاتهم ثالثاً، وسيوصلنا ذلك بطبيعة الحال، إلى جملة من الاستنتاجات الأكيدة والمختفية التي لها نفعها وأهميتها في الحاضر والمستقبل رابعاً، أي بمعنى، الكشف عما يسند مقوماتنا العربية إزاء القدس وهي التي تتعرض اليوم لأقصى التحديات لمواجهة المستقبل، وفي مقدمتها: الدعاوى الصهيونية الخاطئة في جعل القدس عاصمةً أزلية لإسرائيل، وتجريدها من عروبتها، وأصالتها،



وموارثها، وتواريخها، وإفراغها من محتوياتها الاجتماعية الأصيلة.
أهمية الدراسة وإشكالية البحث:

إن الحاجة ماسة وضرورية للعناية بالتواريخ المحلية الاجتماعية والاقتصادية لمدينة القدس من خلال فحص موارثها وبنيتها التاريخية وتحليلها بعد طرح فرضيات وإثارة تساؤلات من أجل البحث عن إجابات والتواصل إلى مزيد من الاستنتاجات. إن عشرات الدراسات والبحوث التي ينشرها الإسرائيليون عن القدس فضلاً عن عدد من المستشرقين والمهتمين الغربيين، لا يوازونها البتة ما ينشر عربياً من القدس... وحتى ذاك الذي ينشر سابقاً أو الذي ينشر اليوم عربياً لا يوازي أولاً في قيمته العلمية ما ينشره الخصوم، أو الأعداء، أو حتى الآخرين. ثانياً لا يرد ولا يتفحص ما ينشر عن القدس في لغات متعددة.

وأزعم أن في ورقتي البحثية المتواضعة هذه، تم إجابات علمية وصريحة عن مسائل أساسية وجوهرية في حياة القدس التاريخية. ذلك أنني أشير بعض الإشكاليات التاريخية. في التباينات الاجتماعية والسكانية والتي عرفت اللغات التاريخية الصعبة التي انطلقت منها تلك المسائل والقضايا التي أعتقد وربما كنت مخطئاً - أن محصلتها الجوهرية تكفي لخدمة مستقبل القدس عربياً وإسلامياً إزاء المخاطر والتحديات الصهيونية في القرن المقبل، وستكون المسألة السكانية وموازنتها المستقبلية إذا ما عرف العرب استخدامها هي السلاح الحقيقي في إبقاء القدس عربية. ذلك لأن الديموغرافية العربية هي التي ستقبض على أنفاس الديموغرافية الإسرائيلية على امتداد الخمسين سنة القادمة. ويحاول المعنبون والمؤرخون الصهاينة العناية بهذه المسألة عناية فائقة... جنباً إلى جنب السياسة الصهيونية في تطبيقاتها من خلال محاولة إفراغ مدينة القدس القديمة من سكانها الأصليين، وذلك باستئصال وجودهم من خلال هدم منازلهم وإبعادهم وإيدائهم، لعل أبرز الكتب الجديدة التي تعتنى بمسألة حيوية كهذه هو كتاب السير مارتن كيلبرت الموسوم بالقدس في القرن العشرين، الذي يدلي بمعلومات تاريخية ومعاصرة من دون توثيقها، أو تبريرها بملاحظات، إذ لا يتضمن كتابه شيئاً منها، ما عدا روايات مستقاة

بهوامش من الصحافة العبرية بعيداً عن المصادر الوثائقية المؤكدة.^١ وهو يقول بأن: كل زائر إلى القدس كان يصاب بالدهشة عندما يجد أن اليهود يؤلفون غالبية هناك. كان الأمر كذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر!^٢ في حين لا تثبت المصادر الوثائقية العثمانية هذا الرأي، ولا يتفحص المؤرخون العرب خطأ معلومات كهذه. ولكن؟ لماذا ركزت على القرن السادس عشر في دراسة التباينات الديموغرافية؟ ثم أسباب أساسية وقفت حيال إثارة إشكاليات هذا البحث:

١. لقد وصلت ديموغرافية القدس إلى درجة متدنية جداً إبان بدايات القرن السادس عشر، وهي حالة لم تصلها ألبته في تاريخها الطويل. إن نظرة دقيقة ومتفحصة في (الشكل رقم ١) تعلمنا عن ذلك كالذي سنحلله بعد قليل.

٢. إن بداية القرن السادس عشر هي اللحظة التاريخية التي تتوسط ثمانية قرون بالضبط تشكل طوالها احتلال الصليبيين لبيت المقدس عام ١٠٩٩م/٤٩٢ق وانهايار الحجم الديموغرافي للقدس إثر مصرع قرابة ٧٠ ألف نسمة من سكان القدس مسلمين ونصارى. ثمن تصاعد الحجم السكاني للقدس على امتداد ٣ قرون (١٢-١٥). ثم انهيار الحجم السكاني للقدس على امتداد القرن الخامس عشر، وتدنى مختلف الحالات الاجتماعية والاقتصادية عند اللحظة التاريخية التي تتوسط هذه الفترة الزمنية الطويلة (٨ قرون) ثم انطلاق التصاعد في الحجم السكاني للقدس على امتداد ٣ قرون (١٦-١٩) وصولاً إلى نهايات القرن التاسع عشر التي سجلت أعظم هجمة تاريخية تتعرض لها القدس من قبل اليهود الصهانية الذين وصلت قوتهم إلى الدرجة التي تمنحهم في المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م المناداة بتأسيس إسرائيل وطناً للإسرائيليين.

٣. ما هو المعنى التاريخي لهذا التقسيم الكمي؟

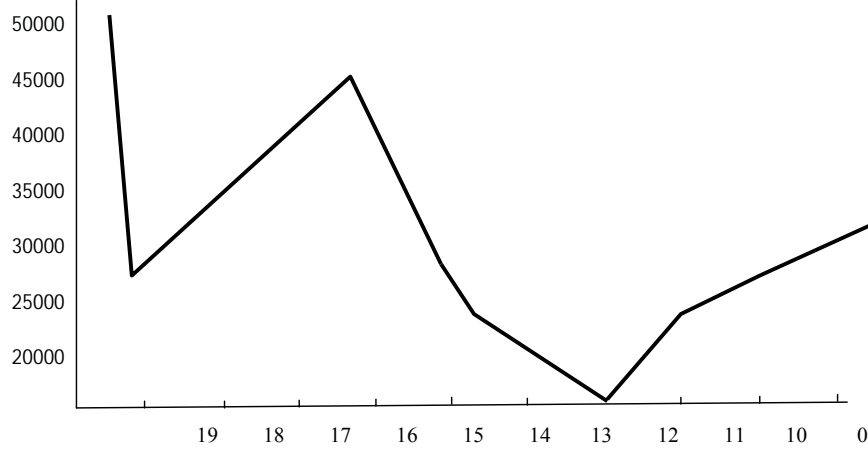
إن القدس قد وقعت في بدايات القرن السادس عشر بين أقسى تحديين تاريخيين عظيمين، أولهما: الهجمة الصليبية القاسية عند قفلة القرن الحادي عشر الميلادي (١٠٩٩م)

1. Sir M.Gelebert, Ierusalem in the Towenth century, Bemlego, 1996.
2. Ibid.P.7.



وثانيهما الهجمة الصهيونية القاسية التي بدأت عند قفلة القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٩٧م) وبين الهجمتين التاريخيتين ثمانية قرون كاملة تتوسطها بالضبط بدايات القرن السادس عشر الميلادي. ولكن إذا كان العرب المسلمون قد حرروا القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد مرور (٨٨) سنة على احتلالها من قبل الصليبيين والفرنجية، وذلك في ٢٠ أيلول/سبتمبر ١١٨٧م بعد موقعة حطين الفاصلة يوم ٣ تموز/يوليو ١١٨٧م، (راجع: التفاصيل التاريخية التي كتبها الباحث سيار الجميل في: النسر الأحمر صلاح الدين الأيوبي. ١٩٩٧م: صص ٦٥-٧٥-٧٩) فإن العرب المسلمين مايزالون عاجزين عن تحرير القدس وفلسطين بعد مرور قرابة (١٠٠) سنة على المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م، وبعد مرور (٢٠) سنة على تأسيس كيان إسرائيل عام ١٩٤٧م، وبعد مرور (٣٠) سنة على فقدان مدينة القدس كاملة عام ١٩٤٧م!

ديموغرافية مدينة القدس



الشكل رقم (١): رسم بياني بالديموغرافية التاريخية لمدينة القدس عبر عشرة قرون ١٠-٢٠ (يهود).

والرسم البياني (شكل رقم ١) يوضح حجم الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس بعد عشرة قرون بدءاً بالقرن الحادي عشر، وانتهاءً بالقرن العشرين، مع ملاحظة الأساليب

التالية:

١. الهجمة الصليبية الأولى في احتلال الفرنجة للقدس عند نهايه القرن الحادى عشر، والنقصان الكبير فى عدد سكانها... ثم تصاعد الديموغرافية التاريخية بامتداد تحرير القدس على يد الأيوبيين وصولاً إلى أعلى ما بلغته فى العهود المملوكية إبان القرن الرابع عشر، وتعود أسباب ذلك التصاعد الديموغرافى فى القدس لعوامل تاريخية منها:
١. استقبال القدس لأعداد كبرى من النازحين من الدواخل الإقليميه والمهاجرين من الأطراف الجغرافية.

٢. الضغوطات المغولية والتتارية على سكان المشرق والعراق، الذين لاذوا ببلاد الشام.

٣. الدعة والأمن والاستقرار والرخاء الذى تمتعت القدس به كله.

٤. الأهمية البالغة التى أولاها السلاطين المماليك للقدس الشريف عمراناً وازدهاراً.
(راجع التفاصيل فى: غوانمة، ١٩٨٧م: ١١٥-١٢٠)

٢. الانهيار التاريخى للديموغرافية التاريخية فى مدينة القدس والنقصان المريع للسكان فيها فى القرن الخامس عشر، وكان وراء ذلك التخلخل المفجع فى بدايات القرن السادس عشر عند نهايات العهود المملوكية أسباب متنوعة منها:
١. الكوارث الطبيعية وتعاقب نكبات الطاعون والأوبئة المستمرة.

٢. الحروب الداخلية وموجات القحط والجفاف التى ضربت منطقة الشرق الأوسط فى القرن الخامس عشر.

٣. الغزوات التتارية المدمرة التى قادها تيمور لنك سنة ٨٠٣ ق / ١٤٠٠م.

٤. هجرة سكان القدس، مندفعين عنها نظراً لما أصابها من شظف فى الحياة المعيشية الاقتصادية.^١

٥. تعلمنا حوليات مجير الدين أنه فى بدايات القرن العاشر الهجرى/السادس عشر

1. Donald p.little, jerusalem and Egypt during the mamluk periyod in Ammon cohen and Gabnel Baer. Egypt and Palestine newyork, 1984. p.p 75-80.



الميلادى لم يستطع أحد المضى لأداء الجح، ولمدة عشر سنوات إلى القدس بسبب عمليات البدو القاسية ضد المسافرين فى قوافلهم بين القدس والبحر الأحمر. (راجع: العليمى، ١٩٧٣م، ج: ١: ٣٢٩)

المحددات الجغرافية

إن القدس الشريف ليس إقليمياً بحد ذاته، بل هو ناحية جغرافية تقع امتداداتها ضمن إقليم من المرتفعات الوسطى فى الأرض الفلسطينية. وإذا كانت جغرافيتها الإسلامية قد توسعت أو انكشفت قبل العصور الحديثة، نتيجة لمؤثرات العلاقات الساخنة بين المسلمين والصليبيين على امتداد تاريخ طويل، فإن محددات ناحيه القدس الشريف قد تبلورت بشكل واضح الأبعاد والمعالم فى أواخر العهود المملوكية كجزء مقدس وأصيل فى الدولة المملوكية الممتدة بين مصر وبلاد الشام للفترة ٦١٨-٧٢٢ق/١٢٥٠-١٣٩٠م.

إذ يعلمنا العليمى (سنة ٩٢٤ق/١٥٢٠م) (أى: عند بدايات العصر العثمانى) قائلاً بأن: «الحدود المنسوبة لبيت المقدس عرفاً، من القبلة عمل بدل سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام، يفصل بينهم قرية سعير وما حاذاها وهى من عمل مدينه القدس، ومن الشرق نهر الأردن المسمى بالشريعة. ومن شمال عمل مدينة نابلس يفصل بينهما قرية سنجل وعزون، وهما من أعمال القدس، وتتمه الحد رأس وادى بنى زيد، وهو من أعمال الرملة. ومن الغرب مما يلي رملة فلسطين بيت نوبة وهى من أعمال القدس، ومما يلي غزة قرية عجور، وهى من أعمال غزة.» (العليمى، ١٩٧٣، ج: ٢: ٨٣)

إن نيابة القدس المملوكية قد حددتها فواصل طبيعية جغرافية عن غيرها من المناطق المتاخمة لها، ذلك أن مرتفعات سنجل التى تفصل جبال القدس عن جبال نابلس، ويفصل وادى بنى زيد القدس عن الرملة، أما جبال سعير، فهى التى تفصل القدس عن جبال الخليل. (النمر، ١٩٧٥م، ج: ٢: ٢٠٤-٢٠٦-٢٢٠) معنى ذلك: إن منطقة بيت المقدس ودساكره وأطرافه تمتد جغرافياً من مركزية القدس بشكل مثلث طبيعى الأضلاع بين

ثلاثة مراكز أساسية فلسطينية، هي: نابلس والرملة والخليل... لتتشكل امتدادات أخرى باتجاهات مختلفة: أما عثمانياً فغدت النيابة ناحية، ولكن لم تحدث أية تغييرات في بدايات حكم العثمانيين لها، ولكن بعد صدور نظام الشرق على عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م)، عدلت المنطقة المقدسية كي تتلاءم مع بنود التنظيمات الإدارية العثمانية، فتوسعت حدود ناحية القدس الشريف شمالاً حيث امتدت من قرية سنجل إلى قرى كفر عطية والمزارع وقرارة بنى زيد، وشكلت قرى الدوير وعابود ودير أبي مشعل الحدود الشمالية الغربية. أما حدودها الجنوبية، فلقد تقلصت من قرية سعير إلى قرى بيت ساوريو بيت تعمز وقد ظلت حدودها الجنوبية الغربية كما كانت عليه في العهود المملوكية، وانتقلت الحدود من طرف الرملة إلى الغرب قليلاً لتصل إلى قرية يالو الواقعة في الجنوب الغربي من قرية بيت نوبا. ولقد بقي وادي بنى زيد هو الحد الفاصل بين ناحية القدس وبين الرملة. أما الحدود الشرقية، فلم تحدث فيها أية تعديلات، حيث بقي نهر الأردن (الشريعة) يمثل تلك الحدود.

التأسيس العثماني

قد سقطت مدينة القدس بيد العثمانيين عام ١٥١٦م، ضمن أسلوب التتابع السلمى لا الاكتساب العسكرى، وذلك بعد دخول السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م) العاصمة السورية دمشق في شهر أيلول/سبتمبر ١٥١٦م بعد قضائه على المماليك في معركة موج دابق ٢٣ آب/أغسطس ١٥١٦م.

وتؤكد المعلومات التاريخية، أن سليماً الأول زار القدس على رأس وفد عثماني رفيع المستوى، ومكث فيها قليلاً جاس في دروبها، ثم صلى تحت قبة الصخرة التي جدد بناءها، ووقف على قبور الأنبياء وأضرحة الأولياء ثم دار في أطراف القدس واطلع على أماكنها المقدسة، لكنه لم يمكث فيها غير أيام قليلة لكي يغادرها بعد أن غدت مع جوارها من اللواحق الفلسطينية، تابعة رسمياً وفعلياً للعثمانيين. وقد أمر سليم الأول بإعادة سور مدينة القدس للمحافظة عليها، ثم تابع توسعته إلى مصر، فأنهى هناك



الوجود المملوكي كاملاً، وعاد عبر سورياً أيضاً ليعين أحد زعماء المماليك السابقين، وهو جان بردى الغزالي والياً على سورياً ثمن خيانة الأخير لقائده السلطان المملوكي الأشرف الغوري في معركة مرج دابق، وقد أضاف الغزالي إلى ولايته، القدس، وصفد، والكرک. (فريدون بك، ١٨٥٨م: ٤٥٢-٤٥٦)

ولما جاء السلطان سليمان القانوني إلى الحكم (١٥٢٠-١٥٦٠م) عقب أبيه سليم الأول، فإن أعماله التاريخية القوية، تدلنا دلالات واضحة على ما حصل من تطورات رائدة، وكبرى في المدن العثمانية، وخصوصاً في المدن العربية الكبرى، والقدس في مقدمتها. ذلك أنه اهتم بتجديد أسوارها وتدعيمها على غرار ما أمر به أبوه، وذلك خلال السنوات ١٥٣٧-١٥٤٤م، وأنجز المهندسون البارعون أربع نوافير مياه جميلة بعد أن عمرت بركة السلطان الواقعة جنوبي باب الخليل عند سفح جبل زايون، كما عمّر السبل (جمع: سبيل مياه) الكائنة في طريق الوادوفي ساحة الحرم إلى الشمال من باب شرف الأنبياء، وأقام المدرسة التنكيزية عند باب السلسلة. ثمن عمد إلى قبة الصخرة سنة ١٥٤٢م فعمرها وأعاد تبيطها معمرًا جدران الحرم القدسي وأبوابه، وسد الباب الذهبي فيه، وفتح باب سنتامريم، ثم عمّر الباب الغربي لقبة الصخرة مجدداً القاشاني في قبة السلسلة من الداخل، وأنشأ مسجداً فوق جبل الزيتون، كما وأنشأت زوجة السلطان سليمان عام ١٥٥٢م، تكية عرفت بتكية خاصكي سلطان في عقبة المفتي، كما أنشأت المدرسة الرصاصية؛ لقد كانت أوقاف القدس قد كثرت عهدئذ، والتي بنيت من قبل السلطان وزوجته حرم سلطان التي نالت ارتياح الناس من الناحية الاقتصادية، إذ قامت حرم سلطان ببناء مطبخ للشورية، وأوقفته لاستقبال الطلبة، والفقراء، وقد اندثرت آثارها اليوم. وفرضت في عهده رسوم على الحجاج المسيحيين، يدفعونها عند دخولهم كنيسة القيامة، وأمن العثمانيون حماية الطريق بين القدس ويافا.^١

لقد سجلت مثل هذه الإنجازات العثمانية الأولى، نقطة مضيئة وضيئة في تاريخ مدينة القدس عند بدايات العصر الحديث، إذ يبدو للمؤرخين المحليين أن القدس، عاشت

1. Goiten, The Encyclopedia of Islam, P:504.

حركة عمرانية نشيطة، ورخاء اقتصاديا واسعا، مما دفع الناس للإقبال عليها من أطراف عدة للسكن فيها، فازدهرت كثيراً مع استمرار، وتواصل حالة التعايش الديني بين أوساط الناس، سواء كانوا من المسلمين وأهل الذمة أو لا، أو كانوا من السكان الأصليين والنازحين المهاجرين نحوها ثانياً... وتدلنا الآثار الباقية في القدس العريقة على قيمة ما أحدثه العثمانيون فيها، والتي مازلنا نشاهدها حتى اليوم في متحف الحرم القدسي، أو تلك التي نجدها مسجلة بمعلوماتها الدقيقة في الأرشيفات العثمانية.

الديموغرافية التاريخية لسكان القدس:

يسجل الحاج بورشاد في توصيفاته للأرض المقدسة، الطوائف، والأديان، والمذاهب، والعناصر السكانية، التي كانت القدس ملتقاه على مرّ تواريخ العصور الوسطى؛ إذ يقول: «ويقيم في الأرض المقدسة رجال من جميع الأمم التي تقطن تحت السماء.» وهو يصف تنوعات سكان القدس، كالتالي:

فهناك المسلمون، والمسيحيون المتنوعون: اللاتين (الذين وصفهم بأسوأ جميع أهل الأرض)، والسريان (الذين لا يثقون باللاتين)، ويقطن السريان بين المسلمين ويشجعونهم، وهناك اليونان، والأرمن، والجورجيون، والنساطرة، واليعاقبة، والكلدانيون الميديون، والفرس، والأحباش الأثيوبيون، والأقباط المصريون، وشعوب أخرى تعتنق المسيحية. تنبئنا المعلومات التاريخية أن أعداد سكان ناحية القدس الشريف قد تعرضت قوتها الديموغرافية للمزيد من الضعف إثر اجتياح الكوارث، والطواعين لمنطقة الشرق الأوسط التي قل سكانها بشكل مهول في نهايات القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري. وتخبرنا أرقام المسوحات السكانية التي أجراها العثمانيون على عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢٥م/٩٣٢ق الذي اهتم بذلك اهتماماً كبيراً بأن عدد سكان القدس المتنوعين من المسلمين، والنصارى، واليهود، بلغ ذروته في منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

تقسيم السكان في إقليم القدس على غرار التقسيمات السكانية العربية الأخرى، في أقاليم عربية أخرى، إلى ثلاثة أنواع: هي أهل المدينة/أهل الريف، وأهل البادية (البدو).



ويتنوع المسلمون في المدينة على مذاهب أربعة من السنة، هي الحنفية، والشافعية، والمالكية، والحنبلية، ودوماً ما كان ينضاف إلى سكان المدينة على امتداد السنوات ومن خلال عمليات الهجرة الدينية، أعداد معتبرة من القادمين المتجددين، ومنهم: المغاربة، والأنطاكيين، والحلبيين، والحمويين، والطرابلسيين، والمصريين، والبغداديين، والموصليين، والأروام (الترك)، والبوشناق (البوريين)، والهنود، والروس.

أما النصارى المقدسيون، فإنهم يتميزون بتنوعهم أيضاً، فهناك المسيحيون المقدسيون الأصلاء ينضاف إليهم مهاجرون آخرون من: الأحباش، والأرمن، والإفرنج، والكرج، والسريان، والفريسيكان، والموارنة... الذين ازدادوا من بدايات القرن إلى نهاياته، بحكم الهجرات الخارجية والداخلية كانتقالات الملكانيين من بعض القرى إلى القدس، وأعتقد أن ليس هناك تنوع سكاني لمسيحي في أي مكان في العالم، مقارنة بما كانت عليه القدس، نتيجة عمليات الجذب والدفع الديموغرافي في القرن السادس عشر، وعليه فإن الطوائف النصرانية في القدس، تتميز بتنوعها الكبير بين الملكانيين، والسريان، والأقباط، والبعاقبة، والأرمن، والروم، واللاتين الفرنجة، والماردينيين.

أما اليهود، فقد كان عددهم في القدس قبل القرن المذكور ضئيلاً جداً، لا يتجاوز المائتي نسمة، ولكنه ازداد قليلاً في القرن السادس عشر، نتيجة هجرات اليهود بعد طردهم من إسبانيا الكاثوليكية، عند نهاية القرن الخامس عشر، إذ استقطبت القدس يهوداً من غزة، وطرابلس الشام، ومصر، فضلاً عن اليهود الفرنج، واليهود الأروام (الأتراك)، لكي يشكلوا لهم تجمعاً في القدس وسط الأغلبية الساحقة من المسلمين¹.

توزيعات المسلمين في مدينة القدس

تخبرنا المعلومات التاريخية التي وفرتها لنا المراجع التاريخية، أن المسلمين في مدينة القدس قد توزعوا في محلاتها السكنية، وحاراتها المعروفة، بشكل متباين على امتداد ثلاثة أجيال من القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري، إذ علمنا أن

1. Amnon Cohen, ottoman Documents, pp12-15.

هناك إحدى عشرة محلة، وحرارة، وهي: الشرف، وباب القطنين، والريشة، والمغاربة، وباب العمود، وعقبة الست، وباب حطة، والزراعة، وحرارة بني حارث، وحرارة الجوالدة، وحرارة بني زيد، وهي مناطق شملت كل أنحاء مدينة القدس القديمة، وعلى جوانبها الأربعة، ولكن الثقل السكاني من المسلمين يزداد في محلات: الشرف، وباب القطنيين، وباب العمود، وباب حطة، والزراعة، وينخفض كثيراً في محلات: الريشة، والمغاربة، وعقبة الست، وحرارات بني حارث، والجوالدة، وبني زيد، بل وينعدم سكن المسلمين في الحارات الثلاث الأخيرة إبان النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. (معلومات عن خطط القدس العمرانية من خلال مصادر تاريخية عديدة، منها كتاب: الأبنية الأثرية في القدس، إعداد: المدرسة البريطانية لعلم الآثار بالقدس، ١٩٩٧م) إن أعداد المسلمين في مدينة القدس، هي قرابة (٢٦١٧ نسمة) بواقع (٥٢٣ خانة × العدد ٥ = ٢٦١٥ + ٢ مجرد = ٢٦١٧ نسمة).

توزيع المسيحيين النصارى

ولعل أضخم الأعداد من النصارى في القدس هم الذين تضمهم الطائفة الملكانية (أو الملكية)، والذين ينتشرون أيضاً في جوار القدس وأطرافها من القرى والداكر... وتقل الأعداد كثيراً عند طائفة اليعاقبة والطائفة السريانية. فضلاً عن نصارى آخرين كانت القدس تجتذبهم دوماً بحكم مركزيتها الدينية في الحج، سواء إليها أو إلى أطرافها، ومنهم: الأقباط، والموارنة، والأرمن، والأروام، والكاثوليك من اللاتين. وكان نصارى القدس يتركزون في جهاتها الشمالية الغربية، وفي حارات صغيرة نسبياً، وهي المسماة بمحلات النصارى، وأولاد قبيطة، ورحبة ابن عز الدين، والملاط، والإفرنج، والتبانة. ومن المفيد أن نذكر كما يشير إلى ذلك عدد من المؤرخين، والسائحين الموثوقين بأن النصارى المقدسيين، لم يشاركهم سكناهم في هذه الحارات غير المسلمين. كما أنهم شاركوا المسلمين في حياتهم بمحلتى الشرف والريشة، وعاشهم فيها اليهود أيضاً.

أما أعداد النصارى المسيحيين في سنة ١٥٢٥م/٩٣٢ق ١١٩ خانة × ٥ = ٥٩٥ نسمة. ثالثاً:



اليهود في مدينة القدس

مسكن اليهود في ثلاث محلات بالقدس، هي: الشرف، والريشة، والمسلك الوسطى، إلا أنهم كانوا يعايشون المسلمين، والنصارى في أغليبتهم، دون أن ينفردوا في أية محلات، كتجمعات منعزلة (Ghottos) كما جرت عليها عاداتهم المعروفة منذ القدم، وفي كل المدن الآسيوية، والأروبية التي سكنوا فيها، وتدلنا المعلومات الوثائقية (من دفاتر الطابو العثمانية) بأن يهود محلتى الريشة، والشرف كانوا أكثر عدداً من يهود محلة المسلك... وكانت لهم مشيختهم اليهودية إذ التي يقوم يهود القدس أنفسهم بتعيين شيخهم على طائفتهم، ولكن شريطة أن يتم ذلك برضى القاضى الحنفى المعين فى القدس من قبل الدولة. وفى سنة ١٥٢٥م/٩٣٢ق ١٩٩ خانة ٥×٩٩٥ نسمة من اليهود فى القدس (خلال الجيل الأول). وفى سنة ١٥٩٤م/١٠٠٣ق تنوفر على خانات اليهود ومجرديهم التالية $٣٢١ \times ٥ = ١٦٠٥$ نسمة + ١٣ مجرد = ١٦١٨ نسمة من اليهود فى القدس (خلان الجيل الثالث). (الديموغرافية التاريخية لمدينة القدس وجوارها فى القرن السادس عشر، سيار الجميل: صص ١٣٤-١٣٥)

وفى العصر العثمانى للمرة الأولى فى ديوان الأوراق نجد إطلاعات دقيقة حول الجمعية، الأبنية، والأماكن، والاقتصاد إلى حدّ لبيت المقدس، وقد شرح، وحلل برنارد لوئيس (Luis Bernard) هذه الإعلانات، والاطلاعات. وعرض النقل، والانتقالات من عدد سكان هذه المدينة طوال حكم سلطان سليمان على أساس قوائم الأسامى لمولّى الضرائب:

			-	/	-				
						--	--		
			--			--	--		

ع: عدد نسمات الأسر. غ: غير متزوج. ف: معاف من الضريبة، كزعماء الدين. على هذا، كان لبيت المقدس في بدء الحكم العثماني قريب ٤٠٠٠ نسمة التي ضاعفت إلى ثلاثة أضعاف، (مشير برنارد لوئيس، يمكن أن تكون القوائم الأخيرة أكمل من القوائم السابقة) وكان ارتفاع عدد اليهود إلى آخر الثلاثينات، أقل من المسيحيين لأن أهم مركز اليهود إلى أواسط هذا القرن كان صفا لا بيت المقدس. (أسعدى، ١٣٦٧ش: صص ٧٠-٧٢)

النتيجة

نرى مع كثرة عدد المسلمين في المحلات، والحارات المختلفة في بيت المقدس في القرن السادس عشر وثلاثة قرون بعده، كان اليهود، والمسيحيون، والمسلمون، يعيشون في بيت المقدس، وحاراتها عيشة سلمية، وأحياناً غير سلمية، ولكن اليوم تتعرض القدس لأقصى التحديات لمواجهة المستقبل. وفي مقدمتها، الدعاوى الصهيونية الخاطئة في جعل القدس عاصمة أزلية لإسرائيل، وتجريدها من عروبته، وأصالتها، وموارثها، وتواريخها، وإفراغها من محتوياتها الاجتماعية الأصلية.

المصادر والمراجع

- أسعدى، مرتضى. ١٣٦٧ش. بيت المقدس. طهران: بنياد دائرة المعارف الإسلامية.
الجميل، سيار. ١٩٩٧م. النسر الأحمر صلاح الدين الأيوبي. عمان/بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
العليمي، مجير الدين ١٩٧٣م. الأتس الجليل في تاريخ القدس والخليل. ٢ مجلد. بيروت: دار الجيل.
غوامة، يوسف. ١٩٨٧م. نيابة بيت المقدس والعصر المملوكي. عمان: دار الحياة للنشر والتوزيع.
فريدون بيك، أحمد. ١٨٥٨م. منشآت السلاطين. لانا: استانبول.
المدرسة البريطانية لعلم الآثار بالقدس. ١٩٧٧م. الأبنية الأثرية في القدس.
النمر، إحسان. ١٩٧٥م. تاريخ جبل نابلس والبلقاء. ٤ أجزاء. نابلس: مطبعة النمر.
Amnon Cohen, ottoman Documents.
Donald p. litle, jerusalem and Egypt during the mamluk peryod in Ammon
cohen and Gabel Baer .Egypt and Palestine newyork. 1984. Encyclopedia



of Islam.

Sir M. Gelebert, Ierusalem in the Towenth century, Bemlego, 1996.

